

وحده من يستحق الذكر



ذكر الله:

لا بدّ للإنسان المؤمن عندما يذكر اسم ربّه، ألا يذكره وقلبه غافلٌ، أو يذكره سبحانه كما يذكر أيّ اسم من الأسماء، وذلك ليُعرف مقام ربّه وليُنزهه عن كلّ صفةٍ من صفات المخلوق، فلا يحاول أن يساوي بينه سبحانه وبين أيّ مخلوق آخر ممن يعيش معه في أيّ صفةٍ من الصفات، فإذا ذُكر العلم، عليه أن يعرف أن ربّه الأعلم، وإذا ذُكرت القدرة، فإنّ الله تعالى هو الأقدر، وإذا ذُكر أيّ شيء، فإنّ سبحانه يمثّل أعلى الدرجات في كلّ شيء، بحيث لا يساويه شيءٌ مهما كانت عظمتها، لأنّ كلّ شيءٍ يستمدُّ وجوده من الله، وإذا كانت الأشياء تستمدُّ وجودها من الله، وتستمدّ عظمتها وقوتها وغناها منه سبحانه، فكيف يمكن للإنسان أن يساوي بين الله وبينها؟

فإذا ذكرتَ الله، عليك ألا تذكر أحداً معه، ولذا جاء في القرآن الكريم (وَأَن تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أُحْدَادًا) (الجن/ 18)، عندما تريد أن تذكر الله، فإنّ عليك أن تذكره وحده، وإذا ذكرتَ غيره، يجب أن يُذكر على أساس أنّه عبدٌ ومخلوقٌ له ومحتاجٌ إليه، ومع كلّ التعظيم والتقدّيس لرسول الله (ص) وبأنّه أفضلُ خلق الله، فعندما نذكر ونشهد الله بوحداً (أشهدُ ألا إله إلا الله) ونشهد للرسول (ص) بالرسالة (أشهدُ أنّ محمداً عبده ورسوله)، فإنّه مع عظمتهم وعلوّ درجتهم وشأنهم يبقى عبداً لله، وعظمة عبوديته لله، بمقدار إخلاصه في هذه العبودية.

إرتباط الذكر بمعرفة عظمة الله:

نعود إلى ذكر الله تعالى: (سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَوْحَى خُرُوجَ الْيَمْرِ عَمَى * فَجَعَلَهُ نُجُومًا وَسُجُودًا) (الأعلى/ 1-5)، نزّه اسم ربك عن كلّ صفةٍ من صفات المخلوقين، وكلّ شأنٍ من شؤونهم.. وكأنّ الخطاب القرآني يتوجّه للإنسان متسائلاً: أتعرف مقام ربك ومنزلته تعالى؟ والنص القرآني ليس بحاجةٍ للجواب.. فربك هو الأعلى، بحيث أنّ كلّ شيءٍ تتصوره، فإنّه في مقارنته

بأن سبحانه، يكون هو الأسفل في كُلِّ شيءٍ، وأن هو الأعلى في كُلِّ شيءٍ. فيجب أن نربّي أنفسنا عليها، فلا يكفي أن ندخلها في عقولنا، فنشعر أن الله هو الأعلى، بل لابد أن ندخلها في قلوبنا، فلا تخفق إلا له سبحانه وتعالى، وإذا خفت لغيره فمن خلاله وحده.

النظام الموزون:

وما هي صفة ربِّك فيما له من صفات قدسية؟ (الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى) فإن سبحانه فوق كُلِّ شيءٍ، لأنَّه لا يساويه ولا يعادله ولا يماثله شيء، فخلق كُلَّ شيءٍ فسوّاه وأوجده وجعله مستقيماً سوياً في خلقته، فلا تجد مخلوقاً في الكون إلا وهو خلاقٌ الله (وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى) قدّر لكلِّ شيءٍ حجمه ودوره وعلاقته التي تتكامل مع نظام الكون، فيصبح الوجود متوازناً، لا اختلال فيه (إِنَّا كُنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلْقًا ثُمَّ نَحْنُ الْعَادَّةُ) (القمر/ 49)، فادرس - أيها الإنسان - المخلوقات الجامعة والحية، أدرسها في شكلها وطبيعتها وحركاتها وخصائصها وعلاقاتها مع بعضها، فإنك تجد حدوداً لكلِّ شيءٍ فيها، بحيث لا تنقص ولا تزيد عن طبيعة الحد الذي حدّده الله تعالى، وعلى هذا، فإنَّه (أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) (طه/ 50)، بمعنى أنَّهُ سخّر له لدوره محدّد ووظيفة معيَّنة، ووجّهه للدور الذي أعطاه إياه.. ولذلك لو أردت أن تدرس علوم الطبيعة والنبات والحيوان والإنسان، وكلَّ خصائص الكون، لرأيت أن كلَّ موجودٍ فيه ينطلق في نظام موزون يتحرّك على قاعدة إكمال دوره في الحياة. ومعنى الهداية في الآية المباركة، أن الله سبحانه أوكل لكلِّ موجودٍ دوراً بحسب طبيعته، فهدي الشمس والقمر مثلاً لأن ينتجا النور والضياء والدفع والحرارة (لا الشمس ممسّيةً يُغَيِّرُ لَهَا أُنْ تَذُرُّكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) (يس/ 40)، وهكذا في الإنسان الذي هداه لمسؤولياته، وفي الحيوان والجماد والنبات (وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى) (الأعلى/ 4)، ومن العشب والخضرة، التي ترعاها المواشي فتتغذى بها، وتستفيد أنت من لحمها وصفوها وما يُستخرج منها (وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ) (النحل/ 80)، وهكذا يبدأ المرعى أخضر طيباً يُبْهِرُ الأنظار، ثم يُصبح يابساً (فَجَعَلْنَاهُ غُثَاءً أَحْوَى) يتحوّل إلى هشيمٍ يابس (تَذُرُّهُ الرِّيحُ يَاحٍ) (الكهف/ 45)، فالغذاء هو ما صار من العشب يابساً (أَحْوَى) أي أسود، أو مائلاً إلى السُّمرة.

وكان الله تعالى يُوحى للإنسان بأنَّه يخلق الأشياء فيُحييها ثم يميتها إظهاراً لعظمته وقدرته، فيتحسّس علاؤه في كُلِّ ما حوله من الموجودات التي تحيط به، وربما ذكّر القرآن "المرعى" وحده كونه يرتبط بالأرض، باعتبار أنَّهُ يمثّل التجربة الحية التي توحى له بمسألة الحياة والموت (وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْحَا بِهِ الْأَرْضَ بِعَدَسٍ مَوْتِهًا) (النحل/ 65)، فكما أن الله سبحانه قادرٌ على إحياء الأرض بعد موتها، قادرٌ على إحياء الموتى (إِنَّ اللَّهَ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (فصلت/ 39).

ثم تنطلق الآيات القرآنية مُوجّهة لرسول الله (ص) (سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَى) (الأعلى/ 6)، نُقرئك القرآن وآيات الله ووجيه قراءة تستقرُّ في عقلك وقلبك وكيانك لتستوعب القرآن في كُلِّ عناصر هذا الكيان، فلا تنسى ذلك أبداً (إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) (الأعلى/ 7)، إلا إذا شاء الله لك أن تنسى، ونحن نعرف أن الله تعالى لم يُرد للنبي (ص) أن ينسى أبداً، ولكن ذكر ذلك حتى يُوحى إليه (ص) أن أمره بيد الله، وهو القادر على أن يُقرّأه فلا ينسى (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى) (الأعلى/ 7)، فعندما يُقرئك الله ذلك، ويريد منك أن تبلغه وتعلّمه وتعمل به وتطبّقه في حياتك وحياة الآخرين، تذكر هذه الحقيقة، وهي أنَّهُ سبحانه لا يخفى عليه شيء، فإذا جهرت بالشيء أو أعلنته فإنَّه يعلمه، وإذا أسرّته وأخفّيته، فكذلك يعلمه، فالجهر والسّرّ عنده سواء. أما البشر فيختلف عندهم حال الإعلان عن حال الخفاء، أما هو سبحانه، فالأمر عنده حالٌ واحد، لأنَّه يعرف عمق الأمور وخفاياها، كما يعلم سطحها وطواهرها. وهذه نقطة إيمانية، من الضروري أن تعيش في وعي المؤمن، فكما أن عليه أن يتقي الله في الجهر، عليه أن يتقيه في الإخفات.

وبعد أن يُقرّئ الله نبيّه قرآنه، فإنَّه يسدّده (وَنُظَيِّرُكَ لَوَيْلٍ سَرَى) (الأعلى/ 8)، نُبيّسّر خطواتك - يا محمّد - ودربك وحياتك ونهجك وكلَّ أمرٍ تتحرّك فيه. واليُسرى مفسّرةٌ بالجنة، أي نبيّسّرُكَ للجنة بتيسير خطواتك نحو مواقع رضى الله وطاعته التي تؤدّي بك إلى الجنة.

مسؤولية التذكير بالله:

وبعد هذا العرض القرآني لقدرة الله وعلمه، ما هي مهمة رسول الله (ص) ومسؤوليته أمام ذلك؟ (فَذَكِّرْ إِنَّا نَزَعَتِ الذِّكْرَى) (الأعلى/ 9)، وكما أن هذا الخطاب يطلب من رسول الله (ص) أن يذكر الناس بالله تعالى، فكذلك يحمل المسلم مسؤولية الدعوة إلى الله، ومسؤولية التذكير بثواب الله وعذابه.. لأن عليه كمسلم يحمل الإسلام في عقله وحياته - أن يقول كلمة الحق في أن يوقظ وعي الناس نحو الحق، ويوظف في ذلك كل إمكانياته وقدراته، ولا يُغشيط عزيمة تمرّ دهم وابتعادهم، كما يفعل الكثيرون الذين يتخلّون عن دورهم في الدعوة، فيبرّون إنسحابهم من الساحة بسبب أن الله ختم على قلوب البعض وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، فما فائدة أن ندعو؟ فالجواب من حولنا يهزأ بنا ويسخر منا، فلماذا نزع أنفسنا، خصوصاً وأن النتائج معروفة هذا منطلق اليائسين الذي يهربون من مواجهة مسؤولياتهم، لأن الله يأمرنا أن نذكر حتى ولو وضعوا أيديهم في آذانهم، فلعل الكلمة تدخل إلى الأذن وتأخذ طريقها إلى العقل والقلب، ثم قد تأتي الكلمة الثانية والثالثة والرابعة، وربما توجد في شخصية من نذكره بالله خزائناً من المواعظ، فيعود إلى الله، كما المطر ينزل خفيفاً خفيفاً، أو نقطة نقطة، فيأخذها الهواء ويجففها، ولكنها تبقى في الأرض شيئاً من الرطوبة، فتأتي النقطة الثانية والثالثة تنزل إلى الأرض فتتحوّل إلى خزان. لذلك، إن علينا أن نذكر من يقبل منا ومن لا يقبل حتى نعدر إلى الله (سَيَذَكِّرْ مَنْ يَخْشَى) (الأعلى/ 10)، من عاش في قلبه الخوف من الله وحسب حساب المصير، وفكر يوم القيامة. وإذا سمع كلمة الله أولاً وثانياً، وكانت الغفلة تحيط بعقله وقلبه، فسوف تفتح كلمات الله ثغرةً هنا في عقله، وثغرةً هناك في قلبه، وثغرةً هناك في شعوره، وستنفتح نفسه كلها على الله تعالى. وأمّا من عطّل سمع الأذن والقلب (وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى) (الأعلى/ 11)، ولم يبد أي استعداد ليفتح قلبه على الحق، وأعلن التمرد، وأظهر الكبر والاستعلاء والاستكبار، وأظهر عدم استعداده لأن يسمع أو يفهم أو يفكر، فما النتائج التي يتحمّلها؟ (الَّذِي يَمْلَأُ الدُّنَارَ الْكُذْرَى * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى) (الأعلى/ 12-13)، جزاء ضلالهم وفجورهم وفسقهم أنهم يدخلون إلى النار ويأكلون الزقوم ولا يطيقون العذاب، فيتمنون الموت طناً منهم أنهم يتخلّصون من هذا العذاب (وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رِبِّكَ) (الزخرف/ 77)، خلاصنا فليقض ربك علينا بالموت. وبأتيهم الجواب سريعاً (قَالَ إِنْ كُنْتُمْ مَآكِنُكُمْ) (الزخرف/ 77)، لا، (ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى) (الأعلى/ 13)، لا يحس براحة الموت، ولا يحس بطعم الحياة.

هذا الشقي، وأما السعيد (فَدَّ أَفْوَاجَ مَنْ تَزَكَّى) (الأعلى/ 14)، الناجح المفلح الذي تظهر علامات النجاح في دروبه ونهايات أمره، والمطمئن للنتائج الإيجابية في حياته، هو الذي يزكّي نفسه ويطهر ربه، وينمي الطاقات الحية الإيجابية فيها على خط الورع والتقوى، وهذا السعيد، من بقي ذكر ربه حاضراً في وعيه (وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى) (الأعلى/ 15)، لم يذكره باللسان وحسب، بل ذكره حضوراً في وعيه في كل منطلقات حياته، ولذلك، فإنّه يصلّي، لا من خلال العادة، ولكن من خلال وعيه لمقام ربه وإحساسه بعبوديته له، وإيمانه بأن عليه أن يقوم لربه في ليله ونهاره.. وهذا هو سرّ الفلاح وسرّ النجاح.

ولكن، ما مشكلة هؤلاء الذين لم يخشوا مقام ربهم فطغوا واستكبروا وانحرفوا وضلّوا؟ (بَلْ تُوْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) (الأعلى/ 16)، تفضّلون الحياة الدنيا على الآخرة، كما لو أن الدنيا خالدة لا تنفي، وكما لو أن لها مطلوبة لنفسها، بينما هذه الحياة الدنيا مطلوبة لغيرها (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) (القصص/ 77)، لك حظ في الدنيا، لكن الدنيا ليست كلّ حظّك "الدنيا مزرعة الآخرة" (وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) (الأعلى/ 17)، خير من الدنيا وأبقى، لأن نعيمها يختلف عن نعيم الدنيا، ومدى الآخرة غير مدى الدنيا، مدى الدنيا هو مدى عمرك، ومدى الآخرة هو مدى الخلود، ونعيم الدنيا ممزوجة بالشقاء والراحة والفرح والحزن، أما نعيم الآخرة، ففرح لا حزن معه، وراحة لا تعب معها، ولذا هي خير وأبقى (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا) (الكهف/ 46).

وهذا الحديث الذي يتلوه رسول الله (ص) عن الله تبارك وتعالى، ليس حديثه وحده، إنّما هو حديث الأنبياء - عليهم السلام - الذين أرسلهم الله ليذكروا الناس بالله، ليتخذوا طريق الفلاح، بأن يزكّوا أنفسهم ويذكروا اسم ربهم ويصلّوا له (إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى) (الأعلى/ 18-19)، كي يسيروا على ما سار عليه الأنبياء، وينطلقوا في الخط الذي انطلق فيه الأنبياء ليصلوا إلى الله من أقرب طريق.

